ملخص

يتناول هذا المقال مبحث المغالطات الحجاجية، التي هي فرع أصيل من فروع علم الحجاج. ويحاول أن يستجلي موضوعها، ويفحص عن طبيعتها، وعلاقتها بالمنطق، من حيث كونها منطقا معكوسا، ينطلق من النتائج والغايات، ثم يرتّب لها المقدمات اللازمة، وباعتبارها لا تتأسس على المنطق العقلي الصوري، ولكن على المنطق العاطفي الذي التفتت إليه الدراسات النفسية والعصبية المعاصرة، فأبرزت كيفية تفاعل الذات الإنسانية مع غيرها من الذوات والأشياء. ومن هنا فقد حاولنا أن نقف على الأهمية التي تكتسيها المغالطات الحجاجية في العملية التواصلية، من حيث هي المحرك الأول للحوار، والقاعدة التي تتأسس عليها فلسفة الاختلاف، بما تستدعيه من اعتراض واعتراض مضاد، وبرهان وبرهان مضاد. كما حاولنا أيضا أن نعلّل حدوثها، والأسباب والدواعي التي تستدعيها.

ومن جهة أخرى أبرزنا اهتمام العلماء منذ القديم بدراستها والإسهاب في تبيان أصنافها، سواء في التراث الفلسفي اليوناني، باعتبار نشأة المنطق الأرسطي نفسه كان ردّة فعل على النشاط السوفسطائي المغالطي، أم في الدراسات اللسانية والفلسفية المعاصرة، التي وسعت من دائرة الفهم لهذه الظاهرة، وآليات اشتغالها.

ومن أجل رسم صورة أوضح للمغالطات الحجاجية، قدمنا بعض النماذج الشائعة منها على سبيل التمثيل لا الحصر.

الكلمات المفتاحية : اللغة - الحجاج – المغالطة – المنطق – الإقناع

مقدمة

يحتل مبحث المغالطات الحجاجية مرتبة متقدمة في البحث الحجاجي المعاصر. إن هذا المبحث فرع أصيل، وتطوّر طبيعي للدراسات اللسانية، التي عُنيت بالتواصل الإنساني، وبطبيعة هذا التواصل، وبالأساليب التي تعتمدها أطراف التواصل من أجل التأثير في الغير أو الاستحواذ عليه وتطويعه.

وفي هذه الورقة البحثية سنحاول أن نستجلي موضوع المغالطات الحجاجية، ونفحص طبيعتها، وأهميتها في العملية التواصلية، وأسباب حدوثها. ونقدم في الأخير النماذج الشائعة منها.

مفهوم المغالطة الحجاجية

المغالطة نوع من أنواع الحجاج، وهي تحتل الموضع المقابل للحجاج البرهاني، ولذا فهي " استدلال فاسد أو غير صحيح يبدو كأنه صحيح، لأنه مقنع سيكولوجيا، لا منطقيا، على الرغم مما به من غلط مقصود "[1]، أو غير مقصود؛ فليس بالضرورة أن يكون الغلط مقصودا ليكون تغليطا. وهذا يعني أن المغالطة حجاج يهدف إلى

[1] حافظ إسماعيلي علوي ومحمد أسيداه :اللسانيات والحجاج ، الحجاج المغالط ، نحو مقاربة لسانية وظيفية ، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته ، ج3، عالم الكتب الحديث ، الأردن ،2010، ص 272.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2019

الإقناع بوجهة نظر ما، أو فعل أمر أو تركه، ولكنه يعتمد أساليب متنوعة، شديدة التنوع من أجل الوصول إلى الهدف المنشود، لا غير. ويعرفها الشريف الجرجاني بالقول : " المغالطة : قياس فاسد، إما من جهة الصورة أو من جهة المادة (...) وقيل المغالطة مركبة من مقدمات شبيهة بالحق، ولا يكون حقا، ويسمى سفسطة، أو شبيهة بالمقدمات المشهورة، وتسمى مشاغبة "[1].

مبررات دراسة المغالطات الحجاجية

إنّ مبحث المغالطات الحجاجية مبحث مكمّل وداعم لمبحث الحجاج المنطقي. وإذا كان الصواب لا يُعرف حقيقةً إلا بالخطأ، فإن دراسة المغالطات الحجاجية تُعتبر واجبا لا معدَل عنه؛ ذلك أن النمو المعرفي للإنسان، حسب بياجيه (J. Piaget)، عملية معقدة جدّا، وتعتبر الأخطاء المنطقية والاستدلالية فعلا طبيعيا عبر مراحل مختلفة من مراحل التعلّم، فـ " كل مفهوم مكتسب ينطوي على استدلال ما "[2]. ثم إن " الأخطاء ليست في الغالب نتيجة عدم الانتباه، بل نتيجة شكل أولي من التفكير الاستدلالي "[3]. ولذلك، لا يجب أن ينظر إلى المغالطات الحجاجية كنشاط منافٍ لطبيعة الإنسان، بل هو نشاط يدخل في صميم تكوينه السيكولوجي. وهو مظهر مهم من مظاهر النمو المعرفي لديه. كل ما في الأمر أن فحص هذه المغالطات ودراستها يفتح آفاق جديدة من المعرفة بالتفكير الإنساني من جهة، وبطرائق الاستدلال لديه، ومن ثمّ المحاججة والإقناع.

أهمية المغالطات الحجاجية في العملية التواصلية

ومن جهة أخرى تعتبر المغالطات الحجاجية هي المحرك الأول لفعالية الحوار، إذا لا ينفك المتحاوران يعترض أحدهما على الأخر، أو يصحّح له، أو يوافقه، أو يخالفه، فـ " المنطوق به الذي يستحق أن يكون خطابا، هو الذي يقوم بتمام المقتضيات التعاملية الواجبة في حق ما يسمى بـ « الحجاج »، إذ حدُّ الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة بحق له الاعتراض عليها.

وهكذا يتضح أن حقيقة الخطاب ليست هي مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدّد ماهية الخطاب إنما هو « العلاقة الاستدلالية »، وليس العلاقة التخاطبية وحدها : فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطِب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة « المدّعي »، ولا مخاطَب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة « المعترض »"[4].

نخلص من هذا كله إلى أن العملية التخاطبية هي عملية حجاجية في الأساس، وتدخل المغالطة في بنيتها بصورة طبيعية ومتكرّرة، جليّة حينا، وخفيّة في أحيان كثيرة. ومع تعدّد الأسباب والدواعي التي تدعو إليها. فالذي

---

[1] الشريف الجرجاني : معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة ودبي، دط، 2004، ص 187.

[2] مصطفى ناصف : نظريات التعلّم، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1983، ص 308.

[3] المرجع نفسه، ص 310.

[4] طه عبد الرحمان : اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط1، 1998، ص 226.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2019

لا شك فيه أنها تلعب دورا مهما في تنشيط عملية الحوار، ودوامه. كما أنها تعلب دورا مهما في البناء المعرفي للإنسان؛ فمن خلال الاعتراض، والمطالبة بالبرهان، يرتقي الحوار إلى مستويات عليا من البيان الحجاجي، ومن ثمّ إعدام الدعاوى غير البرهانية والإبقاء على الدعاوى البرهانية.

ثم إن المغالطات الحجاجية هي المعيار الصريح لفلسفة الاختلاف، كونها ترشدنا إلى مذاهب الناس وتوجّهاتهم وإيديولوجياتهم، وخلفياتهم الاجتماعية والفكرية. إذ لا ينفك المتعارضان يدافعان عمّا يذهبان إليه من رأي، ويتوسلون إليه الوسائل السليمة والمضلّلة. وفي كل ذلك ثراء لا يخفى على أعين النقاد.

وعلى عكس ما يتم تداوله في دراسة المنطق الصوري، من أمثلة منتقاة بعناية، ومجرّدة من كل الملابسات الفعلية للخطاب الحجاجي، فإن الحجاج في واقع الأمر نسيج شديد التعقيد، تتداخل فيه مجموعة كبيرة من العوامل، لعل أهمها العوامل اللسانية، فـ " الحجة حين ترد في الواقع الحيّ لا تأتي مجرّدة مصفّاةً، ولا تكشف صيغتها المنطقية للمتلقي بسهولة وطواعية، إذن لكان تمحيصها أيسر عليه بما لا يحدّ، إنما تأتي الحجة دائما ممتزجة بلحم اللغة ودمها، متلفّعة بانفعالات الناس وأعرافهم، مورّبة بتضاريس الواقع، وبشؤون الناس وشجونهم.

وما تشكّل الصيغة المجردة للحجة (المقدمات المؤدية إلى نتائج) إلا لبّا ضئيلا أو هيكلا نحيلا متواريا وراء طبقة كثيفة من الاعتبارات الدلالية (...) والتداولية (...) للغة، ومن طبيعة الخصم وأيديولوجيته وسيكولوجيته، من مقام الحديث وسياق الجدل، من عواطف جمهور الحاضرين وانتماءاتهم وتحيّزاتهم "[1].

المنطق العاطفي

إن التواصل الإنساني الطبيعي لا يُبنى، في أغلب الأحيان، على المنطق البرهاني. وأطراف التواصل تعمد بقصد أو بغير قصد إلى أساليب المغالطة المخادعة من أجل الوصول إلى غاياتها ومقاصدها، دون مراعاة البناء المنطقي السليم. وهذا يدلّنا في مبتدإ الأمر على أن طبيعة التواصل ترتكز في الأساس على مبادئ مقاصدية براغماتية، لأنها محكومة بالعواطف، التي تتموضع الرغبة في مركزها. وعلى عكس من يرى أن التواصل اللغوي منطقي في الأساس، نرى نحن أن هذا التواصل تتحكم فيه معطيات كثيرة غير منطقية في أغلبها. وفي مركزها تتموضع العواطف. على أساس أن " وراء كل عاطفة أحكام ومعتقدات عليها ينصب الفعل الحجاجي، وعنها يدافع المتكلم إذا أراد أن يبرر العاطفة التي يشعر بها، وإليها يصوّب نقده حين يروم تقويض مشروعية عواطف غيره "[2].

وقد أثبتت الدراسات النفسية والفسيولوجية الحديثة أن الكائن البشري يمتلك نشاطين عقلين متمايزين تشريحيا ووظيفيا : عقلا منطقيا، وعقلا عاطفيا انفعاليا.

---

[1] عادل مصطفى : المغالطات المنطقية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2007، ص 14.

[2] حاتم عبيد : منزلة العواطف في نظرية الحجاج، مجلة عالم الفكر، العدد 2، المجلد 40، الكويت، 2011، ص 244.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2019

و" هاتان الطريقتان المختلفتان اختلافا جوهريا للمعرفة، تتفاعلان لبناء حياتنا العقلية. الأولى، طريقة العقل المنطقي، وهي طريقة فهم ما ندركه تمام الإدراك، والواضح وضوحا كاملا في وعينا، وما يحتاج منا إلى التفكير فيه بعمق وتأمّله. ولكن ... إلى جانب هذا، هناك نظام آخر للمعرفة قوي ومندفع، وأحيانا غير منطقي. هذا النظام هو العقل العاطفي "[1].

ومع ما قد يكون بين هذين العقلين من تفاعل وتعاون في مواقف حياتية عديدة، ففي الأغلب الأعم يتم التضحية بالعقل المنطقي، ليفسح المجال لهيمنة العقل العاطفي، فـ" عقول البشر، [كما يقول علماء الأعصاب]، لا تعمل بالطريقة التي يقول بها المناطقة. فإذا كان اقتناع رجل بفكرة «أ»، ينبغي منطقيا اقتناعه بالفكرة «ب»، فإن الواقع يخبرنا أن هذا الانتقال المنطقي هو الاستثناء وليس القاعدة. فالأعم الأغلب هو الانتقال بين الأفكار عن طريق التداعي النفسي والإيحاء، [وإذن فهذه الانتقالات هي] انتقالات نفسية وليست منطقية "[2].

المغالطة منطق معكوس

إن من أهم الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في المغالطة الحجاجية، قصدا أو عن غير قصد، هو في الحقيقة القيام بعملية منطقية معكوسة، يتم الانطلاق فيها من النتيجة ثم الاتجاه نحو صوغ المقدمات المؤدية إليها. أي أن العملية المنطقية برمّتها تكون معكوسة. ولعل هذا من الخصائص التي تميّز الإنسان عن الحيوان. إن قدرة الإنسان على تصوّر المآلات التي تؤول إليها الأحداث والوقائع والمنازعات تصورا خياليا[3]، وارتباط الإرادة بهذه المآلات سلبا وإيجابا، هو الذي يؤخر دور المنطق لحساب الإرادة. ومن هنا تنشأ المغالطات الحجاجية بشكل طبيعي ومتكرّر، يخفى على المتكلم نفسه، فضلا عن المتلقي.

إن جلاء هذه الإشكال يتطلب البحث في كيفية تعلّق الإرادة بمتعلّقاتها، وهل هذا التعلق يكون عقلانيا أو غير عقلاني. ومهما تكن حجج القائلين بعقلانية الإرادة، فالذي لا شك فيه أن هناك جانبا لاعقلانيا كبيرا في قرارات الإنسان ومواقفه، أو هو على الأقل يستند إلى قرارات لاواعية تنبعث من أعماق النفس الإنسانية. ويذهب شوبنهور(A. Schopenhauer)، على خلاف أستاذه كانت (E. Kant) إلى أن " الإرادة ليست مبدأ عاقلا منظما، يستهدف غايات محددة ويسير نحو تحقيقها تبعا لخطة مرسومة، وإنما هي أساسا اندفاع أعمى، وقوة طاغية لا ضباط لها ولا نظام، أما ذلك الذي نطلق عليه اسم العقل، أو الروح، أو الذكاء، فما هو إلا أداة في يد هذه القوة الغاشمة تتحكم فيه كما تشاء "[4]. ومعنى هذا أن فعل الإرادة أعمق جذرا من فعل التعقّل، أو بالأحرى تعتبر الإرادةُ التعقلَ وسيلة من وسائلها وأداة من أدواتها، لا العكس. ولذلك فهي تفعّله أو تثبّطه تبعا لأحوالها المختلفة.

---

[1] دانيال جولمان : الذكاء العاطفي، ترجمة ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 2000، ص 24.

[2] عمرو شريف : رحلة عقل، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2011، ص 18.

[3] انظر: عمرو شريف : ثم صار المخ عقلا، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2012، ص 117-118.

[4] فؤاد زكريا : آفاق الفلسفة، دار التنوير والمركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط1، 1988 ، ص 199.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2019